

## الصراع الحاسم بين الطغيان والديموقراطية

بقلم باحث دبلوماسي كبير

ظفر للديموقراطية المعاصرة  
ونمت الديموقراطية بظفرها بضعة أعوام ، ولكنها  
أبعدت إلى معترك من الشقاق الخطر ، وانقسمت إلى شيع  
متخاصمة ؛ وبدلاً من أن تجتمع في معسكر موحد ، أخذت  
في نضال عنيف مستمر فيما بينها باسم البادئ والصيغ المختلفة  
ما بين اشتراكية وديموقراطية متطرفة ومعتدلة ، حتى دب  
الفشل إلى صفوفها ؛ وكانت أول نتيجة خطيرة لهذا الشقاق قيام  
الفاشية في إيطاليا وسحق الديموقراطية فيها ؛ ولم تلبث قوى  
الطغيان أن ظفرت تباطاً في بولونيا حيث تقوم حكومات مطلقة  
تستتر وراء الجمهورية ، ثم في ألمانيا حيث قامت النازية  
أو الهتلرية ونظمت أعظم طغيان عرفه التاريخ الحديث ، ثم في  
النمسا حيث طفت الأحزاب الفاشية ؛ وأما في روسيا ، فإن  
النظام الذي استحدثه البلاشفة للجمهورية الجديدة لم يكن سوى  
طغيان شنيع يستتر باسم سيادة الطبقات العاملة ؛ كذلك لم تلبث  
الجمهورية التركية الناشئة أن تحولت إلى طغيان عسكري مطلق  
يستتر تحت نظام جمهوري صوري ؛ فهذه مرحلة انحلال  
للايموقراطية المعاصرة

والآن تبدو في الأفق ظاهرة جديدة ؛ ولقد ظفرت  
الديموقراطية في اسبانيا منذ أعوام قلائل ظفراً ميبئاً ، فسحقت  
اللوكية الطاغية القديمة ، وأقامت حكم الجمهورية والنظم  
الدستورية ، ولكن هذا النصر كان عالياً ، ولم تغد منه  
الديموقراطية الأوربية قوة جديدة ، ولكننا نشهد من جهة  
أخرى وثبة جديدة للديموقراطية الفرنسية ، فقد أسفرت  
الانتخابات الفرنسية الأخيرة عن فوز عظيم لأحزاب اليسار  
أنصار الديموقراطية المتطرفة والحريات الدستورية الواسعة ، وهي  
تربيع الآن في دست الحكم ؛ وأسفرت الانتخابات البلجيكية  
في نفس الوقت عن فوز الأحزاب الاشتراكية ؛ وفي روسيا  
السوفيتية يتحول الطغيان البلشفي منذ أعوام إلى نوع من النظام  
الدستوري العام تنمو في ظله الحريات والحقوق الفردية بإطراد ؛  
ومتد أشهر قلائل شهدنا تحالف الديموقراطية الفرنسية ،  
والديموقراطية السوفيتية في ميثاق مشترك لمقاومة الخطر الألماني  
المشترك . فهذه الظروف والأحداث كلها تم في بظفرنا عن أن

جازت الديموقراطية المعاصرة مرحلتين حاسمتين في تاريخها :  
ففي غداة الهدنة التي اختتمت بها الحرب الكبرى استقبلت  
الديموقراطية طوراً جديداً من القوة والظفر ؛ وكانت الحرب  
الكبرى من بعض الوجوه صراعاً بين الطغيان والديموقراطية ؛  
ففي معسكر الطغيان تجتمع الأسر القديمة الطاغية - آل هيسبرج  
وآل هوهنزرن - والعسكرية البروسية تحركها أطاع مضطربة  
في السيادة الواسعة ؛ وفي المعسكر الخصيم تجتمع الأمتان المريقتان  
في الديموقراطية فرنسا وبريطانيا ؛ وإذن فقد كانت هزيمة الدول  
الوسطى في الحرب الكبرى هزيمة للطغيان واللوكية المطلقة ؛  
وكان ظفر بريطانيا وفرنسا من بعض الوجوه ظفراً للديموقراطية  
والنظم الشعبية ؛ وظهرت نتيجة هذا الظفر واضحة في قيام عدة  
من الجمهوريات الفتية في روسيا وألمانيا والنمسا وبولونيا  
وتشيكوسلوفاكيا ، وفي دول البلطيق الصغرى ؛ فهذه مرحلة

أن أكون منصفاً ، فإني أنا أثرت غيرتها بطول النظر إلى جارتها ،  
وأقول جارتها وإن كان بينهما مثل ما بيني وبينها هي من البعد  
والحق أن جارتها جميلة فاتنة ، ولست أحبها - على الأقل  
إلى الآن - ولكني لا أرى ما يمنع أن أحب الاثنين معاً ، فإن  
لكل منهما خريتها وخصائص حسنها وتبيريها الذي لا يشبه تبير  
الأخرى ؛ والسمرأ ألين وألس في المنان على ما يبدو لي . نعم إن  
ذات الثوب الأرجواني أسلم فطرة وأتقى وأخلص سريرة وأبسط  
قلباً وأبرأ من العبث ، ولكن تلك شيطانة مامونة وعفريته من  
الجن تجمل الحياة كلها حركة دأعة ، وما قيمة الحياة الراكدة ؟؟  
على أني كما قلت لم أحبها بمد ، وإن كنت أعجب بحيويتها  
الزاخرة . وقد أحبها معاً ، أو تستأثر بي التي هي أقدر ما  
إبراهيم عبد القادر المازني

في انكثرت حركة فاشستية صغيرة ؛ واشتد ساعد الجميات الرجعية في فرنسا ، وساعدت على ذلك ظروف سيئة ظهرت فيها النظم الجمهورية بمظهر النظم الفاسدة المفككة ، وعاونت بمض الفصائح الخطيرة مثل فضيحة ستانكي وغيرها على الاعتقاد بأحلال هذه النظم ووجوب تعديلها ، بل قامت بعض جمعيات تدعو الى اقامة الدكتاتورية انقاذاً لفرنسا من هذا الفساد الدستوري الخطر ؛ وظهرت في دول أخرى مثل رومانيا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نزعة الى الاقتباس من الفاشستية والنازية ؛ ومن ثم فني وسعنا أن تقارن مبادئ الفاشستية والنازية ، من بعض الوجوه بمبادئ الثورة الفرنسية التي تمدت حدود فرنسا واجتمعت حكومات أوروبا المطلقة على مقاومتها

والآن نرى في أوروبا مسكرين عظيمين يتأهب كل منهما لكافة الآخر ؛ يتألف أحدهما من انكثرتا وفرنسا وبلجيكا وروسيا ؛ ويتألف الثاني من ألمانيا وإيطاليا ؛ وينحاز لكل منهما بعض الدول الصغيرة ؛ فإذا تأملنا في هذا التكوين من الناحية الدستورية الضينا الديمقراطية ممثلة في الطريق الأول ، والنظم الطاغية - الفاشستية والنازية - ممثلة في الطريق الآخر ؛ وقد رأينا أن الحرب الكبرى قامت على مثل هذا التقسيم في القوى المتحاربة ؛ وأن الدائرة قد دارت على الحكومات المطلقة وعقد النصر للدول الديمقراطية ؛ وإذا تأملنا تاريخ أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، لمنا أثر هذا التصلب الدستوري في معظم الحروب والمعارك التي دارت رحاها فيه ؛ فقد عقدت الماهدة القدسة في سنة ١٨١٥ بين قيصر روسيا ، وإمبراطور النمسا ، وملك بروسيا ، أو بمباراة أخرى بين الأسر الثلاث التي تمثل الحكم المطلق وتتدرج بالحق الآلهي ، وهم آل رومانوف ، وآل هسبرج ، وآل هوهنزلرن ، وغرضها الظاهر توثيق عرى الأخوة المسيحية والتحالف بين الدول الثلاث ، وغرضها الحقيقي مقاومة الحركات الشمسية والدستورية ؛ وقد كانت أوروبا طوال هذه القرن كله مسرحاً لكثير من هذه الحركات التي ترمى إلى الحد من طغيان الحكم المطلق ومساوئها ، وتنمية الحقوق العامة للفرد سواء في الدولة أو المجتمع

إن مجرى السياسة الدولية الحالية يلمح بذاته عن مظاهر

الديموقراطية الأوربية تدخل في طور جديد من أطوار نهضتها وما يلفت النظر في عوامل هذه الوثبة الجديدة التي يلوح لنا أن الديموقراطية الأوربية تيجيش بها ، هو أن فوز الأحزاب الاشتراكية الفرنسية في الانتخابات الأخيرة هذا الفوز الشامل يرجع من وجوه كثيرة الى المسألة الحبشية التي أثارها الفاشستية الايطالية واتخذتها ذريعة للتوسع الاستعماري المسلح ؛ فقد كان غزو الفاشستية للحبشة وظفرها بالاستيلاء عليها ممزقة بذلك كل العمود والمواثيق التي ارتبطت بها في العهد القريب ، متحدية أوروبا وعصبة الأمم والعالم كله ، مظهرًا قويا من مظاهر ظفر الطغيان للنظم ونفثة خطيرة من نشأته تنذر العالم بأخطر العواقب ، وكان موقف حكومة لا قال الفرنسية وتقلها ونفاها إزاء المسألة الحبشية ، وما قامت به من المعاونات السرية لحكومة رومة ، أكبر عامل في ترويج الاعتداء الفاشستي بهذا الظفر الذي تزهو به الفاشستية اليوم وتتخذ منه نذيراً لأوروبا ؛ فلما ردت السياسة البريطانية على موقف فرنسا في المسألة الحبشية ، بموقفها في مسألة الرين وتخليها عن فرنسا ، أدرك الرأي العام الفرنسي أن فرنسا تخاطر بفقد صداقة انكثرتا ، فلم يربدا من التحول في الانتخابات الأخيرة الى ناحية اليسار لتقوم حكومة تعمل بالتفاهم مع الديموقراطية الانكليزية ، وتعاون معها على درء خطر الطغيان الفاشستي والطنغيان الهتلري

\*\*\*

ومن الخطأ أن تتبر هذه الحركات الطاغية الخطرة التي تضطرم بشهوة الاعتداء والتوسع حركات محلية لا تعنى سوى الأمم التي تقوم فيها . فالفاشستية مثلاً تزعم لنفسها صفة عامة ، وتدعي أنها أمثل النظم الحديثة للدولة وتدعم القومية ، وضمان رفاة الشعب ؛ ويزعم طغاة ألمانيا الجدد ( هتلر وشيخته ) أنهم رسل المثل الأعلى للدولة الكاملة ، والمظومة القومية ، ورفعة الجنس ، وأن نظرية الحريات الدستورية والحقوق العامة هي نظرية خطيرة على كيان الأمم ، ويجب أن تكون جميع الحقوق والسلطات متمركزة في الدولة ، والدولة في نظرم هي الحزب النازي ، ويزعم بعض دعاةهم أن هذا النظام القائم سيعيش قرونًا . ولقد كان لهذه الحركات والمزاعم بعض الأثر ، فظهرت

## هنرى روير

عضو الاكاديمية الفرنسية ونيب المحامين

للأستاذ عبد الحلیم الجندی المحامی

إلى المحاماة ، فى شخص المحامى الأول ،  
والنيب الأول ، ابراهيم الجلباوى بك

فى ١٣ مايو الماضى مات هنرى روير نقيب المحامين فى باريس وعضو الأكاديمية ، ووقف لتأبينه النقيب « دى مورو جيفارى » فقال : « إن المحاماة قد فقدت اليوم أكبر رجل وقع من شأنها منذ عهد برييه » . وهى عبارة تعطيك أبغ فكرة عن مكانة هنرى روير فى التاريخ ؛ فلعل « برييه » أكبر رجال المحاماة فى التاريخ الفرنسى ؛ هو الذى حمل لواء الدفاع عن « لامنيه » ، وعن « شاتوبريان » ضد لويس فيليب عندما هتف قائلاً للدوقة « دى برى » : سيدتى ، إن ابنك هو الملك . وكان لويس فيليب يومئذ هو الملك ؛ ثم ترافع عن البرنس لويس نابليون عند ما طلب إعدامه فأقتضه دفاع « برييه » ليصير بعد سنين جلالة الأمبراطور ، وهو الذى كان يدافع عن التهم فى إحدى جنائيات القتل فأخذ محامى المدعى المدنى « النقيب كرسون » يحذر القضاة من عبقرية الدفاع الذى سيسمعونه من نثر التاريخ القضائى فى فرنسا . فاذا جاء هنرى روير بمد هذا الرجل الخالد دون أن يقف أمامه شن دستايج أو ليون ديقال أو جول فاغر أو روس أو « ألو » أو محامى مدام لافارج الذى كان يقول عن نفسه : ( أنا الدفاع » صديق الأمبراطور الشخصى أعنى « لاشو » ؛ ثم باربو ؛ ثم لابيورى ، لابيورى الهائل ، الذى نفذ رصاص الحق إلى جسده ولم ينفذ الرعب إلى قلبه ، فطلب تأجيل قضية إميل زولا حتى يرح المستثنى ليرافع ضد الجيش وحزب الجيش ومنهم مطلق الرصاص ؛ لابيورى الذى قال عنه هنرى روير وهو يلقي الكلام فى تأبينه : « قوة من قوى الطبيعة ومارد فى موقف الدفاع » ؛ ثم دى بوى أستاذ بوانكاريه ؛ والرئيس أو النقيب بوانكاريه نفسه ، محامى جونكودر وجائزة جونكودر ووصية جونكودر ؛ والرئيس فيفيانى أو البلاغة كما كان يسميه بنو المصر ؛ وشنى « أفضلنا » كما كان يقول هنرى روير ؛ ووالدك روسو ؛ والنقيب

تلك المرعة الكبرى التى يسير هذان المسكران إلى خوضها ؛ فانكترا وفرنسا تعملان من ناحية على مؤازرة عصبية الأمم ، وقاتلتها من عثرتها السحيقة فى المسألة الحبشية ، ومن ورأيتها السوفيت ودول أوروبا الصغرى كلها تؤيد هذه الحركة ، لأن مبدأ السلامة المشتركة الذى أريد أن يكون دستور عصبية الأمم ضماناً لتحقيقه ، قد صار بمد ظفر الفاشستية المتدبة بالاستيلاء على الحبشة - وهى من أعضاء العصبة - عقياً لا أثر له من الوجهة الدولية ؛ والدول الصغرى أضحت تخشى على مصايرها بمد أنهار هذا الضمان المشترك الذى كانت تتمتع عليه . وزى من جهة أخرى إيطاليا وألمانيا تسخران من عصبية الأمم ، ولا تدخران وسماً فى مناوأتها وعرقلة أعمالها لأن توطيد السلامة المشتركة وجريبات الأمم وحقوقها إذا تحقق بمثل دولى قوى من جانب الدول الديمقراطية ، فانه يقف سداً فى وجه أطاعهما فى التوسم والاستعمار ، ويؤدى إلى ضعف النظم الداخلية التى تنفذ هذه النزعة الخطرة على حقوق الأمم وحرابها

والخلاصة أنه حيثما تأملنا فى نواحي السياسة الدولية ألقينا مظاهر الحركة الحاسمة التى يوشك أن تجوزها الديمقراطية . والديموقراطية تلتزم خطة الدفاع لأنها بطبيعتها أقل ميلاً إلى الحرب ، ولأن الدول التى تمثلها ، هى فريق الدولة الراضية المستأجرة بالسيادة الاستعمارية الواسعة والموارد الفنية ؛ ولكنها ستضطر إلى الدفاع عن نفسها إذا هوجمت ، وعندئذ تقع معركة الفصل فى مصاير أوروبا الجغرافية والستورية ، وتقع معركة الفصل فى مصاير المدنية ، فاما أن تفوز الديمقراطية فتفوز بذلك المدنية المؤسسة على احترام الحقوق والحريات البشرية ، وإما أن تفوز مبادئ القوة المهيمنة التى تنادى بها الفاشستية والهنترية ، وعندئذ تنهار نظم الحضارة المستنيرة وترجع أوروبا إلى نظم العصور الوسطى

ولكن الديمقراطية التى صمدت لهذه القوى المهيمنة منذ للقرن التاسع عشر تستطيع بلا مرء أن تدافع عن نفسها ومن ورأيتها الرأى المستنير فى العالم كله